قيم العقل العملي عند سبينوزا

م. م عقيل عبد الله عزيز

الجامعة المستنصرية/ كلّيّة الآداب

Akeelsad1991@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص

هذا البحث يعالج المنظومة الأخلاقية عند باروخ سبينوزا، عبر قراءة تحليلية لمفاهيمه الأساسية وربطها بآفاق معاصرة. ينطلق من تحديد موقع الأخلاق ضمن مباحث الفلسفة (الإبستمولوجي، الأنطولوجي، والأكسيولوجي)، ليبرز أن اهتمام سبينوزا أنصب على تأسيس رؤية جديدة للأخلاق ترتكز على مفاهيم الحرية والضرورة، الفضيلة، الخير والشّر، وصولًا إلى الحبّ العقليّ لله. إذ إنّ الباحث رأى أنّ فلسفة سبينوزا الأخلاقية تقوم على رؤية عقلانية – طبيعية تجعل من الإنسان كائنًا مجبرًا من جهة، ومن جهة أخرى قادرًا على بلوغ الحرية عبر الفهم العقلي للطبيعة. الباحث يوافق سبينوزا في بعض الجوانب (كالقول بوجود مجالات لاختيار الإنسان) ويخالفه في أخرى، ولاسيما في مسألة الجبرية المطلقة، إذ يؤكد أنّ بعض الأفعال إنسانية خاضعة للاختيار الحر.

كلمات مفتاحية: الحرية، الضرورة، الخير، الشر، الفضيلة.

The Ethical Values in Spinoza's "Thought"

Abstract

The current study examines the ethical issues of Baruch Spinoza through an analytical investigation of his core concepts and their relevance to contemporary thought. It begins by situating ethics within the broader domains of philosophy—epistemology, ontology, and axiology—highlighting Spinoza's endeavor to establish a novel ethical framework grounded in the concepts of freedom and necessity, virtue, and the notions of good and evil, ultimately culminating in the intellectual love of God. The analysis of the present study demonstrates that Spinoza's ethical philosophy is based on a rational-naturalistic perspective, portraying human beings as simultaneously determined by nature yet capable of attaining freedom through the rational

comprehension of natural laws. The researcher agrees with Spinoza in certain respects, particularly regarding the existence of spheres of human choice, while challenging his doctrine of absolute determinism, asserting that certain human actions are indeed subject to free will.

Keywords: freedom, necessity, good, evil, virtue

مقدمة

يُجمع الفلاسفة على أنّ الأخلاق والتخلق خاصيّة إنسانية أصيلة تميّز الإنسان عن باقي الكائنات الحيّة، وإذا ما تأملنا البنية العامة للفلسفة، نجدها تتوزع على ثلاثة ميادين كبرى، الأنطولوجيّ الّذي يبحث في الوجود بما هو موجود، الأبستمولوجيا التي تعني بإشكاليات المعرفة، الإكسيولوجيا والتي تتمحور حول القيم، ويندرج البحث الأخلاقي في إطار هذا الحقل الأخير، إذ يهتم بدراسة القيم الأخلاقية من حيث طبيعتها وأسسها.

وقد شغلت مسألة الأخلاق أذهان الفلاسفة منذ الفلسفة اليونانية القديمة مرورًا بالعصور الوسطى وصولًا إلى الفلسفة الحديثة، إذ سعى كل تيار فلسفي إلى بلورة مفاهيم جديدة وتأسيس تصورات بديلة للمعايير الأخلاقية. ومن بين هؤلاء الفلاسفة يبرز باروخ سبينوزا الذي قدّم إسهامًا نوعيًا في هذا المجال، إذ عالج قضايا محورية مثل الحرية والضرورة، والفضيلة، والخير والشر، والخير الأسمى.

ومن المنطلق هذا، يروم البحث تسليط الضوء على بعض المفاهيم الأخلاقية المركزية في فلسفة سبينوزا، مع محاولة الكشف عن ترابطها الداخلي وأثرها في بناء نسقه الفلسفي. وسينصرف البحث أساسًا إلى تحليل: العلاقة بين الحرية والضرورة، مفهوم الفضيلة، ثنائية الخير والشر، مفهوم الخير الأسمى المتمثل في "الحب العقلي للّه".

هدف البحث والفرضية الأساسية: يهدف البحث إلى قراءة جديدة لقيم الأخلاقية عند سبينوزا.

حدود البحث ومنهجه: يتعلق هذا البحث حصرا بالفكر الغربي الحديث ولاسيما رأي سبينوزا وقد اعتمدنا المنهج التحليلي والنقدي في شرح فلسفته.

تقسيم البحث: قسم هذا البحث إلى خمس فقرات: أولًا: فلسفته، ثانيًا: الحرية والضرورة، ثالثًا: الفضيلة، رابعًا: الخير والشر، خامسًا: الخير الأسمى في الحب العقلي للّه.

أولًا: فلسفته

قبل البدء في شرح المنظومة الأخلاقية عند سبينوزا* لابد أن نوضح مساره الفلسفي، إذ إن فلسفته

* ولد باروخ سبينوزا (١٦٣٢–١٦٧٧) بأمستردام من أسرة يهودية برتغالية قد هربت من محاكم التفتيش البرتغالية. أراد أبواه أن

تبدأ من الله ثم تنزل منه إلى سائر الموجودات، عكس المألوف عند سائر الفلاسفة وهذا ما أخذه عليهم سبينوزا فقال: إنهم "لم يتبعوا الترتيب المطلوب من أجل التفلسف. لقد اعتقدوا أن الطبيعة الإلهية تعرف في آخر الأمر، وأن الأمور المحسوسة تأتي في أول الأمر مع أنه كان ينبغي عليهم بتأمل البيعة الإلهية قبل غيرها لأنها هي الأولى سواء من وجهة نظر المعرفة ومن حيث الطبيعة. ثم أنها لما عنوا بهذه الطبيعة الإلهية كان من المستحيل عليهم أن يفكروا في الأوهام الأولى التي أقاموا عليها معرفة الامور الطبيعية لأنها كانت بغير فائدة لمعرفة الطبيعة الإلهية" (بدوي، د.ت، صفحة ١٣٨) .

ويرى سبينوزا إنه إذا أردتم أن تبحثوا عن جسد الله فهو العالم وإذا أردتم أن تبحثوا عن روح الله فهي قوانين العالم، وخالف سبينوزا ديكارت، فديكارت يقول بوجود جوهرين المادة والفكر، وهما جوهرين مهما امتدا لا يلتقيان، ولكن سبينوزا يرى أن هناك جوهرًا واحدًا يحمل عليه صفتين الفكر والمادة (الزيني، ٢٠١٣، الصفحات ١٣١-١٣٢) .

ثانيًا: الحرية والضرورة

يصرح سبينوزا بأن إرادَة الله وقوانين الطبيعة معنيان مترادفان، فكلّ ما يقع في العالم من أَحدَاث ما هو إلَّا نتيجة آليَّة لقوانين الطبيعة الثابتة أي أنها نتيجة لإرادة الله الَّتي تطرأ عليها تغير ولا تبدل، ثَمَّ سيكون العالم مسيرًا على وفق فهم خاص فيرى أَنَّ الله يفعل على وفق قوانين ماهيته، ولا يخضع لمؤثرات

ينشأ تنشئة دينية، فبعثاه الى مدرسة حاخام مشهور يدعى مورتيرا، فتعلم على يديه اللغة العبرية وتلقن أصول التلمود. ثم ألتمس دراسة اللغة اللاتينية لدى طبيب يدعى فان دن إنده، والذي ساعده على اكتشاف فلاسفة القرون الوسطى، وأبرزهم القديس توما الآكويني وفلاسفة عصر النهضة وفلاسفة العصر الجديد من أمثال بيكون أوهوبز وديكارت، كان كثير المجادلة مع رجال الدين وسرعان ما أنعتق من ربقة الكنيس اليهودي فخابت آمال الأحبار التي علقوها عليه طويلًا واضطرارهم إلى فصله من الطائفة اليهودية وحرمانه من الحقوق الدينية. ولم يكتفوا بذلك، إذ حرضوا قضاة المدينة على الحكم عليه بحظر الإقامة فيها، فلجأ إلى إحدى ضواحي أمستردام، بعدما لقيه من محاولة اغتيال من طرف بعض المتعصبين. مكث في أمستردام خمس سنين يكسب رزقه بصقل زجاج النظارات، فكان أصدقاءه يأتون من المدينة فيحملون الزجاج ويبيعونه فيها، في هذه الفترة بدأ يكتب ثم أخذ يتنقل في هولندا، وكان أينما يحل يلقى أصدقاء معجبين به معتنقين مذهبه، ومن المعجبين به القائد الفرنسي كوندي، عرض عليه أن يقيم في فرنسا ويتناول معاشًا لكنه رفض، وعرض عليه أمير ألمانيا منصبًا في جامعة هيدلبرج ولكنه رفض كذلك خوفًا أن لا تتوفر له الحرية في التعليم، وكان مصدورًا بالوراثة، فكان مرضه من جهة، وكانت الفلسفة من جهة أخرى، يحملانه على المعيشة البسيطة الهادئة، فلقب بالقديس المدني، وكانت وفاته في مدينة لاهاي الفرنسية. أبرز مؤلفاته: (في مبادئ فلسفة ديكارت (١٦٦٣م)، رسالة في اللاهوت والسياسة (١٦٧٠م)، رسالة في إصلاح العقل، علم الأخلاق، رسالة في النحو العبري، البحث السياسي). (غليجي غ.، ٢٠١٢، صفحة ٤٣٥) ؛ (سبينوزا، ٢٠٠٩، الصفحات ٧-٨) ؛ (كرم، ١٩٥٧، صفحة ١٠٣) ؛ (زكريا، ١٩٨٣، الصفحات ٣١-٣٣) .

خارج ذاته أَو قوى تدفعه إِلى تغير تصرفاته أَو تغيير القوى الَّتي تسير عليها طبيعته وأما مكونات الجوهر الإلهي فلا تملك هذه الحريَّة لأَنَّها تخضع لنظام محكم وقوانين صارمة تحدد مسارها، ولا تستطيع الخروج عنها، فهي لا تمتلك حريَّة على الإطلاق، وهذا يعني أنه على الرَّغم من اتّصاف الجوهر الإلهي بالحريَّة يعد من ناحية أخرى الأساس المطلق للضرورة الصارمة الَّتي تتحكم في العالم (الحيدري، ٢٠١٥، الصفحات ١٩١–١٩٢) . نَجِد أَنَّ الحيدري يقرأ اسبينوزا من منطلق ديني، لكن الباحث يرى خلاف ذلك، فالأصح القراءة المادِّيَّة.

إنّ كل شيء يحدث وفقًا للقوانين الطبيعيَّة، والقول إِنَّ كلّ شيء مكتوب بأمر الله، يعنيان في رأي سبينوزا شيئًا واحدًا. ويظن سبينوزا كل شيء في هذا الكون يجري تحت نظام منطقي دقيق لذلك لا يوجد مجال لوجود حريَّة الفرد كما يبدو لعقلنا، كل شي يحدث في الطبيعة هو آت من أحدى طرق تدخل الله الخفيَّة في الطبيعة، لأَنَّ هناك قانونًا يسوقه، فالعالم مجبر على أَنْ يسير في طرقه، لأَنَّ هناك قانونًا يسوقه، فالعالم كله متكامل متحرك بصورة شموليَّة لهذا فإِن مصطلح الخطيئة يفقد معناه ويصبح غير موجود أَصلًا لأَنَّ كل الأجزاء الَّتي تتحد بقانون أَو الإِرادَة الشاملة من النظام الكلي (الزيني، ٢٠١٣، صفحة ١١٩) .

يذكر سبينوزا في كتابه "الأخلاق" بأن الإِنسَان مجبر وليس حرًا في إرادته، لذا يقول: "ليس في النفس أي إِرادَة مطلقة أَو حرة، بل يتحتم على النفس أَنْ ترد هذا أَو ذاك بمقتضى سبب يحدده سبب آخر، وهذا السبب يحدده بدوره سبب آخر، وهكذا إِلى ما لا نهاية" (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ١٣٥) . يتحذر على النفس أَنْ تكون علة حرة، بمعنى أنه يتحذر أَنْ يكون لديها قدرة مطلقة على أَنْ تريد أَو لا تريد، ويبرهن بنفس الطريقة على أَنَّه لا يوجد في النفس أي ملكة مطلقة للفهم والرغبة والحب ... ألخ، ويترتب على ذلك أن هذه الملكات وما ماثلها أَمَّا هي محض أوهام وأما أنها مجرد كائنات ما ورائيَّة.

يقول سبينوزا في مسألة الحريَّة: "إن الناس يخطئون عندما يعتقدون أنفسهم أحرارًا، والسبب هو أنهم يعون أعمالهم ويجهلون الأَسبَاب الَّتي تدفعهم إليها" (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ١٢٠) . ويعطينا الحجر مثالًا على ذلك، الحجر لا يتحرك إلا إِذا دفعته علة خارجيَّة، فلنتصور أَنَّ هذا الحجر يعتقد أثناء حركته أن جهده هو الَّذي يجعله يتحرك، إِذ ليس لديه وعي إِلَّا بجهده هو على حين أنه يجهل الأَسبَاب الخارجيَّة الَّتي تحكمت في حركته، وهكذا يتصور نفسه حرًا وتلك هي حال الحريَّة البشريَّة. ويؤكد سبينوزا أَنَّ الاعتقاد بحريَّة الإِرادَة وهم باطل وأثر الجهل بالأَسبَاب

الحقيقيَّة وأنَّنا لم نستطعْ فهم الإنسَان على حقيقته وحينئذٍ فهم طبيعة سلوكه طالما أننا نفترض مقدمًا مثل هذه الفكرة الباطلة (زكريا، ١٩٨٣، الصفحات ١٧٨–٢٠٢) . وفي هذا الذكر يرى الباحث بأن سبينوزا انتقد الذين جاءوا بكرة أن للإنسان إرادة حرة في السيطرة على انفعالاته وغرائزه وأنّها تخضع لإرادته وأنه بوسعه التحكم فيها (راشد، ٢٠٢٢، صفحة ٩٥) .

وفي هذا الصدد يرى ديفيد هيوم (١٧١١_١٧٧٦) والذي تأثر كثيرا بفلسفة سبينوزا بأن قضية الحرية ترجع إلى طبائع الناس لذا فيقول هيوم: "إننا نعلم بعامة أن طباع الناس هي إلى درجة ما غير ثابتة وغير منتظمة" (هيوم، ٢٠٠٨، صفحة ١٢٤). هذا هو الطبع الثابت للطبيعة البشريَّة.

ينظر هيوم إلى الحريَّة الإنسَانيَّة على أنها صادرة عن إمكانيَّة تغيير الإنسَان لسلوكه بناءً على رغبته وأهدافه، أيْ أنَّ الحريَّة ليست نابعة من العقل والمنطق، بل هي نابعة من طبيعة الانفعالات والعواطف المتغيرة للبشر وتغيير أمزجة وطبيعة الإنسَان، ولهذا نتصور هذا التغير والانقلاب اليومي بالانفعال ونتصور أنها حريَّة عقليَّة، فإذًا سأل سائل: لماذا العقل عند هيوم لا يكون مصدرًا للحريَّة؟ جواب ذلك: إنَّ العقل في نظر هيوم هو واحد عند جميع البشر حينئذٍ تكون النتائج واحدة أيضًا. إذا اتبع جميع الناس العقل فستأتي نتائج واحدة من هذا الاتباع، هذه النتائج سترضي أناسا ولا ترضي أناسا آخرين. البشر في طبيعتهم يفضلون العواطف وأهواءهم على عقولهم، وحينئذٍ لا يشعر الناس بالحريَّة عند أتباع العقل وبدلًا عن ذلك يقدمون العاطفة والأهواء على العقل إذ يشعرون أنهم أحرار بما يفعلون.

ثالثًا: الفضيلة

يقول سبينوزا: "بقدر ما نجد في البحث عما ينفعنا، أي بقدر ما نجد في حفظ كياننا، وبقدر استطاعتنا عليه، نكون فضلاء، وعلى العكس، إذا أهملنا ما ينفعنا، أعني حفظ كياننا، كنا عاجزين" (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٠). أي أن الفضيلة عين قوّة الإنسان الّتي تحددها ماهيتّه وحدها، أعني الّتي يحددها فقط جهد(*) الإنسان الّذي يبذله من أجل الاستمرار في وجوده. وعليه فبقدر ما يجد المرء في حفظ كيانه وبقدر ما تكون له القدرة على ذلك، يكون فاضلًا، ومن ثمة فهو يكون عاجزًا إن لم يعتنِ بحفظ كيانه (...) (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٠) .

* ويعبر عنه سبينوزا بالكنتوس حيث يقول سبينوزا عنه "لا يعدو ان يكون الجهد الذي يبذله كل شي من اجل الاستمرار في كيانه غير ماهية ذلك الشيء الفعلية".سبينوزا ،باروخ، علم الاخلاق، ص١٣٧.

ويقول سبينوزا: "لا يمكن أن يقال بإطلاق عن الإنسان الذي تدفعه أفكارا غير تامة إلى القيام بشيء ما أنه يسلك وفقًا للفضيلة، لكن يمكن قول ذلك إذا كانت تدفعه المعرفة" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٢) . عندما يكون الإنسان مدفوعًا بأفكاره غير التامة إلى القيام بشيء ما، فهو يكون منفعلًا، أي أنه يقوم بشيء لا يمكنه إدراكه بماهيته وحدها، أو بعبارة أخرى، لا ينتج عن فضيلته الشخصية. لكن عندما تدفعه المعرفة إلى القيام بشيء ما، فهو يكون فاعلًا، أي أنه يقوم بشيء بماهيته وحدها أو ينتج بصورة مطابقة عن ماهيته الشخصية (سبينوزاً، ٢٠٠٩، الصفحات ٢٥٢-٢٥٣) .

ويقول أيضًا: "لا يعدو السلوك وفق الفضيلة تمامًا إلا أن يكون سلوك المرء وعيشه وحفظه لكيانه (وهي كلها ألفاظ مترادفة) وفقًا لما يمليه العقل، وعلى أساس مبدأ السعي إلى ما فيه مصلحته الخاصة" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٣) . فلا يعدو السلوك وفق الفضيلة تمامًا إلا أن يكون سلوك المرء وفقًا لقوانين طبيعته الخاصة. ولكننا لا نكون فاعلين إلا باعتبارنا عارفين، فالسلوك إذن وفقًا للفضيلة تمامًا لا يعدو أن يكون سلوك المرء وعيشه وحفظه لكيانه وفقًا لما يمليه العقل، وعلى أساس مبدأ السعي إلى ما فيه مصلحته الخاصة. فلا أحد يجد في حفظ كيانه من أجل شيء آخر غيره (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٣) .

رابعًا: الخير والشر

انطلق سبينوزا من القول بأنّ الخير حرية، والشر عبودية. وما العبودية لديه سوى خضوع الإنسان لأهوائه وانصرافه إلى الخيرات الحاضرة الموقوتة التافهة. ومن مارسها وانقطع لها بقي في مملكة الأفكار الغامضة المضطربة المبهمة. أما الحرية فإن لها درجات تطابق درجات الكمال. وإن قوامها أن يحيا الإنسان بموجب قانون العقل الذي من شأنه أن يتصور الأشياء في شكلها الخالد الأبدي، ويقدم الخير الآجل على الخير العاجل وذلك بحسب مبدأ النفع الأكبر والفائدة الأوسع (العوا، ١٩٨٨، الصفحات ٩٦٦-٩٦٧) وترى الباحثة بأن السعادة لا تأتي إلا من خلال نشر الخير (لطيف، ٢٠٢٣، صفحة ٥٩٢) .

كان فكر سبينوزا كرد فعل على طريقة التفكير التي كانت سائدة في العصور الوسطى إذ تسود الرؤية الدينية التي تنطلق من الله وتعود اليه، وجعلت الله هو محور العملية الأخلاقية، كونه الخير المطلق، اما الشر فهو نابعًا من خطيئة الإنسان الأول، حيث عوقب الإنسان بفعل هذه الخطيئة وأصبح مخلوقًا مذنبًا وناقصًا بفعل هذه الخطيئة، وجعلوا خلاصهُ يكمن في مدى ابتعاده عن ذاته الإنسانية ولذلك جاء فكر سبينوزا ليعيد قيمة الإنسان التي غُيبت معالمها، إذ قدم رؤية أفقية تنطلق من الإنسان وتعود إليه، لأنه مقياس الأشياء

جميعا. (جوفز، ٢٠٠١، صفحة ٢٢) إلا أن نظرته تختلف عن نظرة السفسطائيين لأنه لا يقصد بالإنسان الفرد وإنما يقصد به النوع، ويعني ذلك أن الخير والشر يتحددان انطلاقًا مما يراه الإنسان في مصلحته، فأصبح الإنسان مع سبينوزا له الاختيار بأن يقبل القيم أو يرفضها تبعًا للنتائج التي تعطي معنى لحياته.

وبذلك يكون قد غير المفاهيم التي كانت سائدة مثل الخير والشر، حيث نجده يستعمل نفس المصطلحات نعم، ولكن بدلالات جديدة، فهو قد اتخذ تعريفًا خاصًا للخير والذي يتمثل في متطلبات الإنسان الحقة والتي تتوافق مع طبيعته، "كلما كان بعض الأشياء موافقًا لطبيعتنا، كان خيرًا بالضرورة" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٧) .

وحينئذٍ كلما كان الشيء نافعًا ويوافق طبيعتنا كان بالنسبة لنا خيرًا، فسبينوزا يرى أن كل ما يسرنا ويفرحنا هو خير وما يؤلمنا ويؤذينا هو شر ويقول في ذلك: "أعني بالخير كل نوع من أنواع الفرح، وأيضًا كل ما يقود إلى الفرح، ولاسيما كل ما يشبع الرغبة، وأعني بالشر كل نوع من أنواع الحزن، ولا سيما ما يحبط الرغبة" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ١٨٥) .

فالخير كل ما يجعل الإنسان يحفظ ذاته ويستمر في الوجود، أما الشر كل ما يعيق هذه الرغبة وهو الاستمرار في الوجود "نسمي خيرًا أو شرًا ما يكون نافعًا لحفظ وجودنا أو ضارًا به أي ما يزيد أو ينقص، ويساعد أو يعوق قدرتنا على الفعل" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٤٠) .

ونجد سبينوزا يقرر أن الخير والشر ليس له أي قيمة ذاتية بل قيمته تتبع من الإنسان نفسه، فكل فعل أخلاقي تتحدد قيمته بما يحققه للإنسان من منفعة، فما كان في صالحه وسعادته سماه خيرًا، وما كان ضارًا ولا يحقق له المنفعة سبب له الحزن، سماه شرًا وفي هذا يقول: "نسمي شرًا ما يكون سببًا في الحزن، أي ما يضعف أو يعوق قدرتنا على الفعل" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٥٧) .

فنظرية سبينوزا في الأخلاق نظرية نسبية "تجدر الإشارة إلى أن الخير والشر يقالان بمعنى نسبي، حتى إن شيئًا يقال حسنًا أو قبيحًا حسب الزاوية التي نعتبره منها" (سبينوزا، ١٩٦٦، صفحة ٣٠) . فنحن نسمي خيرًا ما نعرف تمام المعرفة أنه نافع لنا وليس مجرد تصور عقلي غير موجود واقعيًا "الخير ما نعلم علمًا يقينيًا أنه ينفعنا، أعني بالشر على العكس، ما نعلم علمًا يقينيًا أنه يحول دون فوزنا بخير ما" (سبينوزاً، ٢٠٠٩، صفحة ٢٢٣) . ويكون بذلك قد عالج سبينوزا مشكلة صدور الشر في العالم في أرجعه إلى الإنسان في حد ذاته والذي ينجم من سوء استعمال العقل في كبح الانفعالات السلبية التي تنقص من قدرة هذا

الكائن على حفظ ذاته أي التي لا تساعده على الاستمرار في الوجود أن "الرغبة المتولدة من العقل تجعلنا نسعى إلى الخير بصورة مباشرة وتجنب الشر بصورة غير مباشرة" (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٩٢) . فإذا كان العقل يمتلك فكرة واضحة عن هذه الانفعالات تصبح انفعالات إيجابية وحينئذٍ تكون خيرًا، وهكذا نجد سبينوزا يقدم معالجة لمشكلة الخير والشر مختلفة عن معالجات فلاسفة عصره وفلاسفة العصور الوسطى من أمثال أوغسطين.

فالإنسان يصف أي شيء يرضيه أو يساعده على تحقيق ذاته بأنّه خير، ويترتب على ذلك أنَّ الخير والشر لا وجود لهما إلا في أذهان البشر وإنما وجودهما يتعلق بوجهة نظره فحسب – الإنسان – "نسمي خيرًا أو شرًا ما يكون نافعًا لحفظ وجودنا أو ضارًا به أي ما يزيد أو ينقص، ويساعد أو يعوق قدرتنا على الفعل" (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٤٠) . وجعل من الخير فضيلة متاحة للجميع وفي هذا يقول: "الخير الأسمى عند الذين يتبعون الفضيلة مشترك بين الجميع ويمكن أن يتمتع به الجميع على قدم المساواة" (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٦٣) . إنّ الخير الأسمى عند الذين يتبعون الفضيلة هو معرفة الله، أي أنه خير مشترك بين الناس ويمكن لهم الفوز به جميعًا على قدم المساواة (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٦٣)

فسبينوزا لا يدعو الإنسان الواحد أن يسعى لمصلحته دون سعيه لمصلحة غيره، فالفضيلة الحقة عنده تكتسب جوهرها من الخير المشترك بين النوع الواحد وهو النوع الإنساني، فالخير المشترك بين جميع البشر هو الذي يحقق الخير كخير باعتبار أن لهم نفس الطبيعة ولذلك وجب أن يتساوى الخير (سبينوزا، ٢٠٠٩، صفحة ٢٦٣) . وبما أن البشر جميعًا يمتلكون نفس الطبيعة فلا ضير إذن بأن يعم الخير بين البشر جميعًا.

خامسًا: الخير الأسمى في الحب العقلي لله*

يؤكد سبينوزا على إن واجب الإنسان في الحياة التماس المسرة وتجنب الألم، ولكي يحقق الإنسان ذلك فعليه أن يفهم قصوره العام، فنحن كبشر تروس في إله الكون، والإرادة التي تحرك هذه الآلة هي عقل الله اللانهائي الخالد، وعقل الله هو قانون الطبيعة، لذلك يدعونا سبينوزا إلى استكمال العقل أو

* من خلال هذا العنوان نستطيع أن نستنتج إن سبينوزا وحد بين الله والطبيعة فكلما يذكر الله يذكر معه الطبيعة فاذا عرف الإنسان الطبيعة معرفة كاملة وصل الى الخير الأسمى حيث يقول سبينوزا" كلما خفت معرفة للطبيعة، سهل عليهم انشاء أوهام أكثر، كان يتوهموا أشجار تتحدث، واناسا يمسخون فجاة حجارة او ينابيع، واشباحا تظهر في المرايا واللاشيء يصبح شيئا، والالهة تتحول الى دواب وبشر، وامور أخرى كثيرة من هذا القبيل" ونستنتج من ذلك ان سبينوزا فيلسوف مادي بحت، (سبينوزا، ١٩٦٦، الصفحات ٤٤–٤٥) .

الفكر إلى أبعد حد ممكن، وفي هذا وحده تكمن سعادة الإنسان القصوى، أما الخير الأسمى فهو معرفة الله. وحين يعرف الإنسان الله معرفة حدسية لا يملك إلا أن يحبه، وهذا ما يدعوه سبينوزا الحب العقلي لله. وإذا استبدلنا بالله الطبيعة أمكننا أن نقول إن سعادة الإنسان القصوى تقوم في معرفة الطبيعة ومعرفة قوانينها معرفة واضحة وكافية من منظورها الأزلي (متي، ١٩٧٤، صفحة ١٢٠) .

إذا فُهمت فكرة الله على إنها النظام الضروري للكون فإن حب الله العقلي يغدو عندئذ نوعًا من حب الكون أو تعبيرًا عن سعي الإنسان الدائم إلى بلوغ المثل الأعلى للمعرفة ... وحين يتخذ الإنسان ذلك العلم الصحيح هدفًا له يغدو كل شيء أمامه واضحًا وتول كل الآلام والانفعالات الهوجاء لأن كل شيء يفسر من خلال الضرورة الكلية للكون، التحرر من الانفعالات والخوف الناتج عن الجهل بالأسباب وعن إغفال الطبيعة الضرورية لكل الحوادث، ويكتسب العقل راحته الكبرى عندما تظهر الضرورة الكونية الأزلية أمامه واضحة شفافة (إبراهيم، ٢٠٠٠، الصفحات ١٦٨-١٦٩) .

ينبغي أن نشير، إلى أن الآراء مهما اختلفت ومهما تباينت التأويلات لمؤلفات ونصوص سبينوزا، فإن الثابت، هو أن كتاب علم الاخلاق إنما هو تحقيق لمشروع خطط سبينوزا في مؤلفه الآخر (رسالة في إصلاح العقل)، فإذا كان المطلوب من علم الأخلاق أن يقودنا بتدرج نحو، معرفة اتحاد الإنسان أو النفس الناطقة بالطبيعة كلها)، فإنه يجوز النظر إلى (الرسالة في إصلاح العقل) على أنها رسالة إعدادية يمهد بها صاحبها لمشروعه الأخلاقي ويحث على البحث عن الخير الأعظم (سبينوزا، ١٩٦٦، صفحة ٢٧) .

الخاتمة

بعد تحليل فلسفة سبينوزا ومقارنتها ببعض الأطروحات الفلسفية الأخرى، يمكننا الخروج بجملة من النتائج الأساسية:

١- تبيّن أن فلسفة سبينوزا تقف على النقيض من فلسفة ديكارت؛ فبينما انطلق ديكارت من الذات للوصول إلى العالم الخارجي، بدأ سبينوزا من النظام الميتافيزيقي الكلي ليفسر من خلاله وجود العالم والإنسان.

٢- اتضح أن سبينوزا يقرّ بالحتمية المطلقة، نافيًا حرية الإرادة الإنسانية، إذ يرى أن أفعال الإنسان محكومة بدوافع داخلية لا يعيها ولا يمتلك السيطرة عليها.

٣- ربط سبينوزا الفضيلة بمفهوم "الكوناتوس"، أي السعي الدائم الذي يقوم به الإنسان من أجل الحفاظ على وجوده واستمراره، وهو

مبدأ يضفي على فلسفته طابعًا ميتافيزيقيًا خاصًا.

٤- في مسألة الخير والشر، قدّم سبينوزا رؤية نسبية تقوم على ربط الخير بالفرح والشر بالحزن، وهو ما يجعل هذه القيم مرتبطة بالخبرة الشعورية للإنسان أكثر من ارتباطها بمبادئ عقلية أو معايير مطلقة.

٥- من خلال قراءة معاصرة لفكر سبينوزا، أمكن الوقوف على بعض أوجه القوة، ولاسيما في نقده للتصورات التقليدية عن الحرية. ومع ذلك، فقد ظهر أن موقفه من الحتمية بحاجة إلى مراجعة؛ إذ إن الأفعال الإنسانية ليست جميعها خاضعة للإكراه، بل هناك مساحة معتبرة للحرية تتجلى في قدرة الإنسان على الاختيار في كثير من المواقف، رغم وجود معطيات جبرية كالمكان والزمان والخصائص الوراثية.

وبناءً على ما تقدم، يمكن القول إن فلسفة سبينوزا تتيح لنا فرصة لإعادة التفكير في مفهومي الحرية والحتمية ضمن سياق فلسفي معاصر، الأمر الذي يفتح المجال أمام دراسات أعمق تربط أطروحاته بالنقاشات الراهنة في الفلسفة الأخلاقية وفلسفة العقل، وكذلك بمجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تبحث في علاقة الإنسان بواقعه وقدرته على الفعل والاختيار.

قائمة المصادر

إبراهيم الزيني. (٢٠١٣). *سبينوزا، كنوز، ط١.*

إبراهيم مصطفى إبراهيم. (٢٠٠٠). *الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، منشورات دار الوفاء، الإسكندرية.*

إحسان علي الحيدري. (٢٠١٥). *فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين، لبنان، بيروت، ط٢.*

باروخ سبينوزاً. (٢٠٠٩). *علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، ط١.*

ديف رونيسون وجودي جوفز. (٢٠٠١). *أقدم لك الفلسفة، ترجمة امام عبد الفتاح امام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.*

ديفيد هيوم. (٢٠٠٨). *مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة، موسى وهبة، دار الفارابي، ط١.*

سالي محسن لطيف. (٢٠٢٣). *مجلة آداب المستنصرية، العدد١٠٣، المجلد٤٧.*

سبينوزا. (١٩٦٦). *رسالة في إصلاح العقل، ترجمة جلال الدين سعيد، دار الجنوب، تونس.*

عادل العوا. (١٩٨٨). *فلسفة الأخلاق، ضمن كتاب الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، معهد الإنماء العربي، ط١ .*

عبد الرحمن بدوي. (د.ت). *موسوعة الفلسفية، ج١ ، ذوي القربى، ط٢ .*

علي خالد عبد علي وقاسم جمعة راشد. (٢٠٢٢). *مجلة الفلسفة، العدد٢٦ .*

غنار سكيربك و نلز غليجي. (٢٠١٢). *تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديم إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج إسماعيل ،المنظمة العربية للترجمة،ط١ .*

غنار سكيربك ونلز غليجي. (٢٠١٢). *تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديم إلى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، ط١ .*

فؤاد زكريا. (١٩٨٣). *اسبينوزا، دار التنوير للطباعة والنشر، ط٢ .*

كريم متي. (١٩٧٤). *الفلسفة الحديثة عرض نقدي، منشورات جامعة بنغازي.*

م.د فينوس ميثم علي. (٢٠٢٢). *مماليك الخليفة الناصر لدين الله ودورهم السياسي والعسكري ٦٢٣ – ٥٧٧ هـ/ ١١٨٠ – ١٢٢٥ م. العراق: مجلة كلية التربية الاساسية العدد ١١٦ مجلد ٢٨ .*

يوسف كرم. (١٩٥٧). *تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر.*